# المسؤولية في الأدب

بقلم أحمد كمال زكي

في هذه الأيام ترتفع أصوات فريق من الأدباء داعية إلى الالتزام في الأدب ليقوم بدوره في خدمة المجموعة الانسانية، بينما يذهب فريق آخر إلى ضرورة تحرره من أي قيد خلقي أو مجتمعي باعتباره فناً جميلاً. وبين صيحات أولاء وهؤلاء تتجمع في الشرق العربي سحب خلاف يزيده اتساعاً ان الأدب في حقيقته لا يعرض للأشياء كما هي في ذاتها أو كما هي في علاقاتها الموضوعية، فيحيل من قيم الواقع ويدفع بنا الى واحد من الطرفين المتضادين .. الافراط أو التفريط !

ولقد قامت مجلتنا « الآداب » بدورها في الوقوف عند هذه الظاهرة وبسطها للقارىء وتوضيحها، فرأينا من بعيد أو قريب مدى خطورتها من حيث إنها ذات أثر عظيم في حل كثير من مشكلات الفن والابداع، ومن حيث إنها تتصل بطبيعة الفن نفسه وبالموضوع الذي يختار وبوسائل التعبير عنه وبغير ذلك مما يعرض لجماع الشكل والمضمون في العمل الأدبي الأصيل .

ومن الملاحظ على أي حال أن الدعوة الى الالتزام لم تكن جديدة اذا توسعنا في فهمها ووقفنا عند ادراك القدماء — عرباً كانوا أم غربيين — للأدب . وليس المجال مجال استشهاد ولا سوق أمثلة، ففي كتب الأدب العربي ونقده لمحات ذكية وإشارات واعية الى لب المشكلة، ولنا فيما كتب الجاحظ وقدامة الجرجاني ما يغنينا عن التقصي والاستطراد .

أما في أوروبا فقد أسهم الأدباء في بناء مجتمعها الناهض، ومرّ الجميع بتلك الأزمات التي امتزج فيها التشاؤم بالتفاؤل، واستطاع بعض الشباب ان يقابلوا اليأس بروح التحدي، واندفعوا يعبثون بكل القيم، وانتهزوا فرصة إغراق الرومانيين في التعبير عن مشاعرهم الشخصية، فنادوا بضرورة معالجة مسائل الفن لمجرد الفكرة التي توحيها هذه المسائل، وقام نيوفيل جوتييه ينكر عليهم مذهبهم ويكيل الثناء للشاعر بودلير لأنه حافظ على الاستقلال المطلق للفن، وأنكر أن تكون للشعر أية غاية خارجة عنه، ولن تكون له رسالة إلا ما يبعثه في نفس القارىء من الادراك للجمال بمعناه المطلق .

وليس من شك في أن هذه الدعوى في إنكارها للرومانسية من ناحية وفي هدمها للمثل الأخلاقية والمعنوية وفي عدم تأييدها لنظم اجتماعية معينة من ناحية أخرى، إنما تصدر عن إيمان بالفلسفة المثالية وبخاصة فلسفة « كانت ». وكان هذا الفيلسوف يرى أن أساس الشعور بالجمال هو اللذة التي تحدثها الصورة . حتى ليبدو صحيحاً — وهذا عجيب — أن العناية بالصورة هي كل عمل الفنان، ومن هنا لا ندهش لما قاله والتر باتر من أنه في كتاباته لا يستهدف إلا صقل العبارة ليصل إلى الجمال لذاته، ولم يحاول قط أن يكتب شيئاً له غاية خلقية أو اجتماعية .

على أن ذلك، إذا صح، كان علينا أن نقول مثلاً إن الشعر هو بما فيه من موسيقى وإيقاع، حتى ولو خلا من كل مضمون . وبالطبع ليس ذلك صحيحاً، لأن الفن بهذه الكيفية لا وجود له على الاطلاق، فضلاً عن أن مادة العمل الأدبي إما أن تكون مستمدة من العالم الذي يحيط بالفنان، وإما أن تكون نابعة من العالم الذي ينطوي عليه . وهو في أي الحالين يحدد موقفه من إحدى ظواهر الكون، كما يدل دلالة واضحة على ان الخلق الأدبي مرتبط بمبادىء وآراء خاصة، فيصح من هنا ما قاله بلزاك في مقدمة الملهاة الانسانية La Comédie Humaine من أن الحد الذي يجعل الأديب أديباً بل ما يجعله قريناً لرجل الدولة أو ربما أعظم منه، هو حكمه في مشكلات الحياة الانسانية وارتباطه بموقف لا يحيد عنه . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أنه لا بد للأديب من أن تكون له فلسفة في مسائل الحياة التي تضطرب من حوله .

ولأمر ما غير ذلك كله تردد كثير جداً من فناني الانجليز في قبول مبدأ الفن للفن ونشبت المعارك بينهم وبين خصومهم من الفرنسيين، وتصدى جون راسكن في نهاية القرن التاسع عشر للردّ عليهم، وكان من رأيه ان الفن ليس تهويماً أو سراً أو شيئاً من هذا القبيل، ولكنه مشكلة قائمة تتطلب العلاج.. هكذا في بساطة وصراحة وبغير التواء !

على أننا لم نعدم في الانجليز من نحا نحو پاتر وراح يرى رأيه في الفن .. لم نعدم فيهم اوسكار وايلد يناهض فكرة الالتزام في الأدب ، ولكنها رغم ذلك ظلت قائمة حتى لقد أصبحت السنوات الأولى من القرن العشرين تنىء بهزيمة فكرة الفن للفن ، إلا أن هذه عاشت حتى الحرب الأخيرة ، وفي تلك الآونة جرّد الأدباء — وخاصة أدباء فرنسا — أقلامهم يدعون لوطنهم وينعون على الذين يتعاونون مع الألمان موقفهم ، ورأينا من هؤلاء البير كامو يخلص لبلده ويدعو له ويكتب من أجله ، بل يشقى احياناً بالانسانية كلها ويروح يبحث فيما يكتب من قصص عن مصير الانسان ، وعن تردده بين الخير والشرّ ، وعن حظه من العدل والظلم .. من العقل والدين .. من الحرية والعبودية .. من اليأس والرجاء .

وهكذا تتكشف لنا حقيقة الأدب ونوع مسئوليته كما نرى إلى أي حدّ نشز اصحاب الفن للفن وكيف غاب عنهم ان يفهموا ان الأديب الذي يحكم في إحدى مشكلات الحياة لا يصرف الأدب عن حقيقته ولا يخرج به عن دائرة الفن .

غير ان هذا لا يعني على الاطلاق سلامة منطق الالتزاميين في دحضهم آراء خصومهم ، فلقد ظنوا هم أيضاً ان في دعوة الفن للفن تحولاً بالأدب عن أداء رسالته وتنكباً عن طريقه السوي . والذي لا شكّ فيه انه مع التسليم بما في « الفن للفن » من ميل الى السلبية واستنامة الى الدعة ، فهو لا يخلو من فكرة ولا أقول غاية ، ذلك ان الصياغة السليمة من الناحية اللغوية والتصويرية والمنطقية لا تحدث في النفس أثرها حتى تنطق بها شخصيات إنسانية فيها ما في الانسان من تركيب نفسي ومحصول تجريبي .. فنظرية الفن للفن إذن ليست شراً كلها كما أنها لا تقف ضداً لدعوة الالتزاميين .

فلنسلم إذن بالمسئولية ما دام هناك التزام على الأقل ...

نسلم بالمسئولية أياً كان لون الأديب ، وأياً كان طبعه ومزاجه وثقافته وتجربته وموقفه من الحياة . وفي هذه الأيام بالذات يتجه الأدب الحديث الى فهم النفس البشرية فهماً قائماً على تصوير الواقع دون زيف فيه ولا افتراء .. فهو أدب تحليل وتفصيل بعد ان كان قبل — وخاصة في تراثنا العربي — أدب تجميع وتلخيص . وفي هذه النزعة المحللة المفتتة يصطدم الأديب بمواضعات المجتمع ولا يتقبل كل الآراء التي تشيع من حوله ، فيحدث ذلك التصدع الذي يدعوه الى الابداع والى الدعوة الى معايير فيها ما فيها مما لا ترضى عنه المجموعة أول الأمر في كثير من الأحيان .

فالمسئولية بهذه الكيفية ليست سلبية بالنسبة لمن حوله ، لأنه بطبيعته يسعى لاحداث أثر كتب من أجله . وبين هذه الغاية وموقف المجتمع منه وموقفه هو من المجتمع ، ورغبته في تحقيق فلسفته ودعوته الى معاييره التي أخلص لها ، تكبر المسئولية وتتعقد .. فإذا هي ممتدة في نفسه متشعبة ، وإذا هي متصلة بالمجتمع تصطرع من أجله ، ثم إذا هي لا تخلص من قيود الفن وطبيعته ...

ولكنا نسأل ما لون المسئولية ، ما طبيعتها ؟

ما حقيقة هذه المسئولية في التزام الأديب ما يلتزم بالنسبة لفنه وبالنسبة لمجموعته ؟ أفيستطيع في محافظته على سلامة المبادىء الجمالية وفنيتها ان يحسن التعبير عن نفسه ويصدق ، ثم يوجه المجتمع الى غايته ؟ أليس من الممكن ان يصبح ذلك كله مجرد مران عقلي أو مجرد مهارة ذهنية فيبعد بالأدب عن دائرة الفن ؟

الحق ان التجربة قد وقفتنا على ان الاعمال الكبيرة في الأدب Chef-d'oeuvre لم يكتب لها حظ البقاء إلا لأن اصحابها وفوا لأنفسهم في الوقت الذي وفوا فيه لمجتمعهم ، وبين الشكل السليم والمضمون المجدي تقلب الناس وانفسح السبيل أمامهم ليقوموا بحركاتهم الاجتماعية الموفقة .

أجل .. فليس شك في ان كل عمل فني ينبع بالضرورة من ذلك الصوت الذي يهيب بالأديب ان يكتب ، كما لا ينفصل عن ضرورة كونه إنساناً منفعلاً له حساسيته ، والمسئولية بهذا الاعتبار ثالوث له أصل واحد ، او هو فعلاً شيء واحد .

والأديب المسئول لا يمكن ان يقنع بالتهويمات الصوفية ويطيل التأمل في أحلامه الشعرية ، وليس في وسعه ان يعيش في السحب منعزلاً عن عذابات البشر وافراحهم ، لا ولا يستطيع ان يعلق نفسه دون ما يضطرب في مجتمعه من آراء في السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين ، بل هو بالطبيعة شديد الوعي لما حوله ، شديد الالتصاق بالأرض ، شديد الاخلاص للواقع التاريخي الذي يحيا في امتداد له . ومعنى ذلك كله ان الجمال بمعناه الفني عنده هو الحياة كلها بماضيها وحاضرها ، بتليدها وطريفها .. هذا هو الجمال الذي ينشده ، وليس هو ما تغنى به المثاليون من عهد افلاطون الى يومنا هذا .. هو ما حدا بأرسطو

ان يقول مرة إنه يفضل ان يضع اغاني أمة على ان يضع قوانينها، وفرق ما بين ارسطو وافلاطون هو الفرق ما بين الحقيقة والحلم.

على ان الأمر ليس بهذه السهولة؛ فثمة حقيقة من طبيعة الأديب الكبير ان يكون واعياً لها.. فهو في إيمانه بأنه يسعى بالبشرية إلى أمام، وان أدبه عامل في تطهير المجتمع، فلا بد ان تكون المسئولية نابعة من نفسه، فهي مقررة ولكنها ليست محسوسة، وذلك يستلزم منه ان تكون آراؤه في الحياة جزءاً منه .. جزءاً من تكوينه العقلي والوجداني، فتصدر عنه في تلقائية وعفوية بعد عملية تمثيل بطيئة طويلة كاملة أشبه بعملية التمثيل النباتي Assimilation .

ومن هنا لا نحس آراءه مقتسرة مفروضة علينا فتكون أشبه بالشجى في الحلوق، ويكون أقرب منا واكثر فعالية فينا واعظم دفعاً لنا الى الأمام. فإذا كنا نطالب الأديب اليوم بالمضمون الاجتماعي، فلسنا نريد ان نضطره الى ذلك اضطراراً وليس من حق احد عليه ان يجبره على لون معين من الكتابة، ولا ان يلزمه برأي خاص من الآراء، وإلا استحالت عليه عملية التمثيل اللازمة لفعالية أدبه، وانقطع هذا النوع من التعاقد الذي يقوم بينه وبين المجتمع، وضاعت غاية الالتزام الذي ننشده.

هذه هي المسئولية التي نريد، وهذا هو النطاق الذي تتحدّد به، فإذا لم تستطع ان تثير من القضايا الفكرية والفنية والمجتمعية ما يفسح السبيل للبشرية ان تسير، فيجب ان نعود الى انفسنا ونبدأ من جديد.

القاهرة — **احمد كمال زكي**

عضو الجمعية الادبية المصرية


**صدر حديثاً**

# الخليفة الزاهد

## عمر بن عبد العزيز

**تأليف الاستاذ**

**عبد العزيز سيد الأهل**

أوسع دراسة عن هذا الخليفة العظيم وما قام به من أجل إقرار العدالة الاجتماعية بين المسلمين

الثمن ٢٥٠ ق. — **دار العلم للملايين**


# العودة

بيتي إذا عدتُ أرى ما به ... يهش بالايناس والبهجةِ

من قطه المكـّار .. يصحو إذا ... تبيّن الأصداء من خطوتي

لساعةِ الحائط .. للمنحنى ... في الردهةِ الزرقاء... للهدأة

أرى حياتي فيه قد لُونت ... أصباغها من قلب محبوبتي

فكفها قد طرّزت عيشتي ... بالحب . والفرحة. والنعمة

لا تطعم الراحة إنْ أخّرت ... شواغلي العودَ إلى شقتي

تجلس في الردهة مشغولة ... لهيفة ... تنسج بالابرة

تنسج لي هذا الصدار الذي ... تذيب فيه أقدس الحنّةِ

والقطّ «بوسي» ماسح وجهه ... حيناً ... وحيناً نائم اليقظةِ

وعينها في ساعةٍ عُلـّقتْ ... لتسأل الساعة عن أوبتي

وسمعها للباب .. إن غرّدت ... أصابعي .. طارت إلى قبلتي

فتضحك الجدران .. حتى إذا ... أقفلت أبوابي على جنتي

جلست أحكي كل ما سرني ... وساءني منتفضَ النشوة

وزوجتي تنصت في غبطة ... قريرة ... هانئة النظرةِ

القاهرة — **كمال نشأت**

من رابطة «النهر الخالد»